قلبه واخترق الرمح صدره فوقع يتخبط بدمه وفاضت روحه وشفتاه تردان اسم جوزفين

* * *

في ذلك اليوم أقيمت في باريس حفلة زفاف جوزفين فلما تمت تقدم الناس لتهنئة العروسين وكان بينهم صديق يوسف فتناول يد العروس وانحنى امامها ثم همس في اذنها ان يوسف قد مات اليوم يا سيدتي فلك البقاء . فاضطربت الفتاة وامتقع لونها وسقطت من عينها دمعة على بياض ردائها الدمقسي لكنها تجلدت وحسبها الناس دمعة تأثر فبسموا لها وانقضى الامر كأن لم يعفر التراب وجه ذلك الشاب .

تأثير العمر في النفس

قال ابو الحسن التهامي رحمه الله

اذا بلغ الفتى عشرين عاماً واعجزه الفخار فلا فخارُ
اذا ما اول الخطيّ اخطا فلا يرجى بآخره انتصار

وقال شاعر آخر

وماذا تبتغي الشعراء مني وقد جاوزت حدّ الاربعين

وقال العلامة الشيخ ناصيف اليازجي رحمه الله

شاب شعري نظير ما شاب شعري فبياض العذار بيض عذري
ولقد قصرت طوال الليالي همتي فانتشا من الطول قصري

هذا وللشعراء وسواهم اقوال كثيرة يدعون بها انه بانقضاء الشباب تنقضي الهمة وتضعف القريحة ويخمد الذكاء ولقد جاء في هذه الايام استاذ في اميركا يؤيد هذه الدعوى بمقالة نشرها وهو يزعم بها ان قوة العقل تضعف عند حد الاربعين وان الانسان متى بلغ الستين عاماً فقد صار كأنه مخدّر بالكلوروفورم وانه لا يعود صالحاً لعمل وقضاء ومهمة وهو يعتقد ان الدنيا تكون في خير ونعيم اذا انقطع رجال الستين عن تدبيرها والعمل فيها واسندت شؤونها الى رجال العشرين لحد الثلاثين وما فوقها بقليل لان التاريخ قد دل على ان كل الخطوب التي اصابت الدنيا من سوء التدبير وضعف الرأي وكلال العزيمة قد جاءت من رجال الستين ومن فوقهم وان الصلاح كل الصلاح انما هو في الشباب من كل وجه حتى لقد افرط في زعمه هذا فنصح بان لا يكون اساتذة بعد الاربعين لان من يتجاوز هذا الحد لا يكون صالحاً لتهذيب سواه

اما هذا الاستاذ فيقال انه من رجال العقل والحكمة الذين يجب ان تؤخذ اقوالهم بعين الاعتبار وينظر فيها ليرى مبلغها من الصواب ولذلك تعرض له كثيرون يجادلونه في هذا الموضوع حتى استقر البحث على انه مبالغ فيما يقول

على ان نابوليون الاول كان يقول ان الانسان بعد الستين لا يعود صالحاً لعمل ولعل الاستاذ المشار اليه قد بنى دعواه على هذه العبارة مع انها ليست على كل الصحة في كل شيء لانه لو اعتبر رجال السياسة والحرب والقضاء والشعر والانشاء والفلسفة لوجد بينهم جماهير قد افادوا العالم فوائد عديدة وهم في جوار الستين وما فوقها ولكنه وان كان لا ينكر ان للشباب

الافضلية في اكثر الاشياء فلا يجب اعتبار الشيب نقصاً الى الحد الذي رسم لانه اذا كان امثال الاساتذة فيرشو ولستير وكوخ قد افادوا العالم فوائد مخلدة وهم في مقتبل العمر فلا ينكر فضل الشيوخ في القضاء خصوصاً والتدبير عموماً وذلك لان قوة التجارب قد تكفلت بتعويض ما ونى من افهامهم وفتر من عزائمهم . اما رجال الحرب الذين يجب لهم مضاء العزيمة والاقدام فلا ينكر فضل الشباب عليهم فان نابوليون قد بهر العالم وهو دون الثلاثين وكذلك نلسن فانه اقتاد اعظم الاساطيل وهزم بها مثلها وهو شاب وفريدريك الاول كان اعظم قائد وهو في الثامنة والعشرين ولكن التاريخ لم يدل على اطلاق ذلك على العموم لان مولتك وهو عظيم مثلهم كان في السادسة والستين حين باشر حربا عظيمة في بوهيميا وكان هو مدبرها الاول ولا تزال حكومة اليابان تعتمد في حربها الحاضرة مع الروس على رجال اصغرهم فوق الاربعين وهم كلهم مجربون وعلى تمام التعقل والدراية . واما السياسة فقد كان بسمارك داهيتها وهو فوق الخمسين ومثله كثيرون لا يعدون وهم يجرون مجرى القضاة من حيث تعويض التجارب عن قلة التعقل او عدم توليد الذهن . اما الانشاء او العلم بجملته فيظهر انه لا قيد له من سن فيكون عظيما في الشباب وضعيفاً في الشيخوخة لان دارون الذي بهر العالم بارائه ومكتشفاته كان في الخمسين حين صدرت اعظم المؤلفات عنه وكذلك كلفن فان اجل اعماله صدرت عنه وهو كبير وكذلك فيرجيل القديم فان احسن اقواله كتبت وهو في نحو الخمسين وكذلك دانتي الشاعر الايطالي الشهير فان اجل منظوماته ظهرت وهو مسن

وعلى الجملة فان قول الاستاذ قد يكون مصيباً في الاعمال التي تقتضي

همة وذكاء معاً واما التي تقتضي الذكاء وحده فقد يكون الشيخ فيها افضل من الشاب لان الفخار الذي يريده انتابي في قوله الآنف انما هو فخار السياسة والحرب ونحوهما مما كان هو نفسه كثير المباشرة له واما فخار غير ذلك كالشعر مثلاً فلا والدليل على ذلك هو ذاته فان احسن شعره الذي جعله في منزلة المخلدين انما هو في رثاء ولده بتينك المرثيتين الطنانتين وهو قد نظمهما حين كان متجاوزاً الاربعين كما قال في احداهما

ولما اتى بعد المشيب عدلته ... بعصر الشباب الغض بورك من عصر
وقلت شباب ابني شبابي وانما ... ينتمّ معنى الشطر مني الى الشطر
فولى كما ولى الشباب كلاهما ... حميد فقيد طيب العهد والاثر
على حين جزت الاربعين مصوبا ... ولاحت نجوم الشيب في ظلم الشعر

ومما يستحسن من شعره لدفع قول الاستاذ قوله

عبسن عن شعر في الرأس مبتسم ... ما نفر البيض مثل البيض في اللمم
ظنت شبيبته تبقى وما علمت ... ان الشعيبة مرقاة الى الهرم
ما شاب عزمي ولا حزمي ولا كرمي ... ولا وفائي ولا ديني ولا شيمي
وانما اعتاض رأسي غير ملبسه ... والشيب في الرأس غير الشيب في الهمم

اما ما يقوله علامتنا اليازجي من ان شعره شاب بشيبه فما يقصد به الاعتذار من قبيل التواضع الذي كان مشهوراً به وقد اضاف على ذلك انه ارخ نفسه بنفسه ودل القاري على انه نظم تلك القصيدة في مديح شيخ الاسلام وهو متجاوز حدود الشباب ولكنه اذا جاز اعتبار الشعر دليلاً على السن لم تكن تلك القصيدة بمؤكدة لقول الاستاذ الاميركاني من وجود ذاك الفرق بين الشاب والاشيب لان القصيدة شابة في غاية الانسجام والحسن

وقد قال ايضاً

تكافت نظم الشعر كهلاً لاجله ... ويكهل شعر المرء عند اكتهاله
فضاع كما ضاع الزمان وهكذا ... نرى كل امر لم يجلْ في مجاله

الا ان هذا القول لا يخرج القصد منه عن القصد من ذاك لانه قد جاء في مفتتح هذه القصيدة قوله

سلام على من لا نمر بباله ... فماذا ترى اطماعنا في وصاله
ولم يكفه ما قد حملناه في الهوى ... من الذل حتى زاد حمل دلاله
مليح شهدنا ان ناراً بخده ... لانا وجدنا بينها فحم خاله
اباح فؤادي للهوى وهو باخل ... يعز عليه نظرة من جماله
وكل كريم النفس من مال غيره ... وقل كريم النفس من نفس ماله
وما كان لم تتعب عليه يمينه ... يهون عليه بذله بشماله

وهذا كله من مبتكر المعاني التي اوصلتها قوالبها الى نهاية الحسن فجاءت دالة على قوة توليد ذهنه حين اكتهاله وبقاء تلك القريحة على عهد صباها الاول

بل هذا نجله العلامة الشيخ ابرهيم اليازجي فان قلمه يرسل الان من الفصول والمقالات ما يستجمع الحسن والصحة معاً مع انه قد جاوز الخمسين ولقد صدر منه بالامس كتاب نجعة الرائد المذكور في هذا الجزء فجاء آية من آيات الحسن والجودة وسلامة الذوق . على انه قد يقال انه لو صنفه وهو شاب لجاء اجود ولكننا لا نظن ذلك صحيحاً لان الكتاب محتو على امد الحسن

ثم اننا اذا رجعنا الى الماضين لا نجد منهم دليلاً يؤكد دعوى الاستاذ

فان قصائد المتنبي مثلاً وهي المقياس الذي تقاس عليه المدارك السامية كانت اوان اكتهاله اجود منها زمان شبابه كما يبدو ذلك من الفرق بين مدائح سيف الدولة وكافور الاخشيدي وبين مدائح الممدوحين في صباه ومنتصف عمره ومثله ابو عباده البحتري فانه لا يدرك فرق بين منظوماته ليدرى ما نظم منها في الصبي وما نظم في الكهولة ولكن له قصيدة يقول في مطلعها

احبب اليّ بطيف سعدي الآتي وطروقه في اعجب الاوقات

وفيها يقول

نظرت الي الاربعون فاصرخت شيبي وهزت للحنو قناتي

فان هذه القصيدة الاربعينية قد جاءت على غاية الحسن وهو مع كونه مشهوراً بالرقة والرشاقة فان هذه القصيدة الكهلة تنفرد بذلك عن اخواتها الشابات

اما ما ورد للمتنبي مما يؤخذ حجة على دعوى ذاك الاستاذ فقوله

وفي الجسم نفس لا تشيب لشيبه ولو ان ما في الوجه منه حرابُ
لها ظفران كل ظفر اعده ونابٍ اذا لم يبق في الفم نابٍ
يغير مني الدهر ما شاء غيرها وابلغ اقصى العمر وهي كعاب

فانه دل بها على انه نظمها في اكتهاله ولكنها جاءت من جيد شعره

ثم قال في قصيدة اخرى وهو كأنه يعارض الاستاذ

ليت الحداثة باعتني الذي اخذت مني بحلمي الذي اعطت وتجريبي
فما الحداثة من حلم بمانعةٍ قد يوجد الحلم في الشبان والشيب
ترعرع الملك الاستاذ مكتهلاً قبل اكتهالٍ اديباً قبل تأديب

يريد بالاستاذ كافوراً وهو يمدحه بالكهولة بسبب ما يصاحبها من صحة الادراك وسلامة النظر

واننا لو شئنا ان نتتبع الماضين للاستدلال من اقوالهم على عدم تأثير الكبر بمداركهم لذكرنا منهم العدد العديد من رجال كل فن

نجعة الرائد

بيتُ اليازجيّ قومٌ اذا قالوا قالوا صحيحاً واذا كتبوا كتبوا فصيحاً. اذا قالوا شعراً جروا اذيال النسيان على ابي الطيب والوليد واذا كتبوا ضربوا على ذكر ابن المقفع وعبد الحميد قومٌ هم ملوك الادب والبيان من قديم الزمان اذا تحداهم احد كان عندهم عاملاً يمضي على ما سنوه له من قواعد البراعة وشرائع البيان قومٌ كأنهم سبَوا اللغة بجمال قرائحهم فلم تحن عهدهم وترضى بحبيب آخر بين الانام فبقيت مقصورة في خدور اذهانهم لا تبرز الا محجبة منهم بين اسنة الاقلام وظبي الافهام واذا برزت بدا الجمال على متون المهارق تتهيبه عيون المتأدبين وغارت عليه الالباب تحفظه كأنه جمال الغيد تحفظه مهج العاشقين قومٌ اذا ذكرت الاقلام كسر كل كاتب خجلاً امامهم قلمه واذا عدت رجال الفضل في الشرق كانوا المقدَّمة لا في المقدَّمة فالسلام على قوم هم مطلعُ شمس الادب في الشرق ومغيبها والسلام الخصوصي على الباقي منهم وهو هذا صاحب النجعة الذي زفت اليه اللغة حليلة وحسن به نصيبها